الحـــــظ *

للأستاذ زكى المهندس
عميد كلية دار العلوم

سيداتى . سادتى :

الحظ والجد والسعد والنحس كلمات يتداولها الناس فيما بينهم فى كل زمان ومكان ، فالناس جميعا يؤمنون بالحظ ويتمنونه وأنا كذلك أومن بالحظ وأتمناه ولكن دائرة الحظ عندى دائرة ضيقة محدودة لا تتجاوز تلك الظروف والأحداث التى لا سلطان لى عليها ولا قبل لى بتغييرها .

فلا شك أن فى حياة كل منا تقع أمور وأحداث يخيل إليه أنها تجرى على غير قياس وتشذ عن كل قاعدة . وهى تؤثر فى حياتنا فتجلب لنا خيرا أو تدفع عنا شرا أو تحرمنا ما نشتهى أو تسوق الينا ما نكره .

فطالب يموت عائله وشوفى منتصف المرحلة الدراسية فتضطره ظروف العيش وتكاليف الحياة إلى الانقطاع عن دراسته ليعول نفسه وأسرته . ورجل معدم يساق اليه على غير انتظار ميراث من قريب موسر يموت ولا وارث له سواه . وفلاح ما يكاد يزدهر زرعه ويؤتى ثمره حتى تهطل عليه الأمطار فتفسد من محصوله وتضيع عليه جهوده . ورجل فقير يرشح الجائزة الأولى فى سباق الدربى أو المؤاساة أو مبرة محمد على الكبير فيصبح بين عشية وضحاها من ذوى الجاه واليسار ، وموظف من ذوى الكفاية لا يكاد يرشح للترقية إلى وظيفة يحرص عليها حتى تستقيل الوزارة فيظل على حاله بضع سنوات أخرى .

هذه الحالات وأشباهها قد تقع لنا أو تجرى حولنا ويرأى منا من غير أن يكون لنا يد فيها أو طاقة على اجتذابها الينا أو دفعها عنا . فما كنا لندفع موتا أو نمنع مطرا أو نرد قضاء أو نكيف الأحداث السياسية على ما نشتهى ونحب ، هذا هو ما يجب أن نسميه بالحظ أو الجد أو القدر أو ماشئتم أن تسموه .

وما يقع للأفراد من هـذا قد يقع للأمم ، فإن للأمم — كما للأفراد — حظوظها وجدودها ، وفى التاريخ القديم والحديث أحداث من هذا النوع طبيعية وسياسية قد غيرت وجه العالم وحولت مجرى التاريخ .

---

* أذيعت فى البرنامج الثقافى لوزارة الشئون الاجتماعية يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٥

وعلى هذا يجب أن ندرك أن الحوادث التي يلعب فيها الحظ دوره ليست الا حوادث محدودة — لاقدرة لنا عن توجيهها أو التأثير فيها . هي تلك الحوادث التي تعد في حياتنا نوادر ومستثنيات أو شواذ لا يمكن الاعتماد عليها ولا يجوز أن نتخذ منها قاعدة لأعمالنا وحياتنا . فماذا يكون مصير الرجل الفقير إذا قعد عن العمل انتظارا لميراث قد يهبط عليه من السماء أو كنز مخبوء يقفز اليه من جوف الأرض ؟ وماذا تكون نهاية الطالب الذي يهمل في دروسه توقعا للنجاح عن طريق البعادة والحظ ؟ وأي مستقبل لموظف — أيا كانت كفايته العلمية — إذا أهمل في عمله ترقبا لقيام وزارة يكون له فيها عضد وظهير ؟

انما الجهلة من الناس هم الذين يغلون في معنى الحظ حتى لينسبون كل أمر في حياتهم إلى قوة خفية عليهم خارجة عنهم فهم يؤمنون بأن نجاح المرء أو فشله يرجع حتما إلى حظه الباسم أو جده العاثر وهم يحاولون أن يبرهنوا لك على صدق اعتقادهم بحوادث وقصص هي من نسج خيالهم أو مما يسيئون فهمه وتأويله .

هؤلاء هم الجهلة المغرورون الذين يحاولون أن يخفوا عيوبهم ونقائصهم تحت ثياب تلك الفتاة المعصوبة العينين التي تصيب من تشاء وتخطىء من تشاء بغير حساب .

إن فهم الحظ على هذه الصورة من شأنه أن يفتك بنشاطنا ويحطم من عزائمنا . إن الحياة الانسانية منطقية أكثر مما نتصور . ف حياة المرء ليست مجموعة من الحظوظ والمصادفات تجرى على غير نظام وتشذ على كل قانون . بل أنها — ككل شيء في الوجود — خاضعة لنظام ثابت وتواميس مقررة . أجل أن حياتنا من صنع أيدينا أنها مجموع أعمالنا وأفكارنا وعواطفنا . أننا نستطيع أن ندبر حياتنا على ما نشتهي ونكيفها على ما نحب ، ولسنا مرتبطين في هذا بطلسم أو قوة خفية لا ندركها أفهامنا وانما نحن الذين يحملون تلك العصا السحرية نخلق بها دنيانا كما نريد أن تكون . أن سعادتنا أو شقاءنا ليست في الكواكب صعودها ونحوسها وانما هي فينا ومنا وإلينا فالنشاط والجد والعزم والمثابرة والجلد هي سر النجاح وأضدادها هي علة الفشل .

هل منا من يرتاب في أن النار تحرقنا إذا لمسناها ، وأن البكين يجرحنا إذا جربناه في جسومنا ، وإنا في الغذاء الصالح استدامة للصحة ومبعثا للقوة ، وأن الهواء ضروري لحياتنا ، وأن الكهرباء تولد الضوء والحرارة وأن الشمس والقمر يجريان على نظام ثابت مطرد لا يشذ ولا يتخلف "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون" فاذا لم يداخلنا الريب في هذه الظواهر فماذا يريبنا في أن تكون أعمال المرء وسلوكه خاضعة كذلك لقانون مطرد ثابت ؟

حقا ، أيتها السيدات والسادة — أن حياة المرء الأدبية خاضعة — ككل شيء — لقانون العلة والمعلول والسبب والمسبب وأن نجاح المرء أو فشله هو كصحته أو مرضه، له أسبابه وعلله وأن قولنا (النجاح وليد العمل والفشل حليف الكسل) هو حكم أدبي ولكنه لا يقل فى قوته وصدقه وشموله عن قولنا (الحرارة تمدد المعادن) .

إن صفاتنا الأدبية هى كل شيء فى الحياة فاذا ضعفت هـذه الصفات أو انتسخت فلا رجاء فى حاضر ولا أمل فى مستقبل. هذا هو القانون الطبيعى. وما يسميه سواد الناس حظا أو سعدا أو نحسا ليس إلا أمانى وفينا .

نعيب زماننا والعيب فينـا وما لزماننـا عيب سـوانا
ونشكو دهرنا من غير ذنب ولو نطق الزمان بنا هجانا

يقول (جيته) أن تسعة أعشار العبقرية والنبوغ ليست إلا ثمرة الجد والنشاط والمثابرة ولكن البله هم الذين لا يؤمنون بأن النجاح والجد متلازمان .

ويقول الدكتور (جنسن) المؤلف الانجليزى المشهور أن شكوى الناس من سوء الحظ ومن الدهر ظلم فانى لم أعرف رجلا نشيطا مجتهدا يخيب فى مسعاه ثم يفشل فى عمل من أعماله فلا يلومن إلا نفسه .

ويقول (أديسن) المخترع الأمريكى المعروف "هناك قوم يؤمنون بأن الحظ يناوئهم فهم لا يتفكون يندبون سوء حظهم فى الحياة ويعيشون لذلك فى فاقة وبؤس ولكنى لم أر فيما رأيت رجلا حسن الأخلاق سليم العادات مجدا فى عمله حازما فى شئونه قد شكا من سوء الحظ" .

هذه — أيها السادة — أقوال رجال من ذوى العلم والتجربة يجعلون الجد والمثابرة وسلامة الخلق العمل الأولى للنجاح فى الحياة .

إن الأعمـال التى رفعت من شأن الانسانية لم تكن وليدة الحظ ولا المصادفة فليس الحظ هو الذى أخرج لنا (الالياذة) لهوس وشملت وشكسبير . وليس الحظ هـو الذى أخرج لنا ذلك الشعر الخالد للمتنبى أو كتاب الأغانى للأصبهانى أو الحيوان للجاحظ .

وليس الحظ هو الذى منح (أديسن) مصباحه الكهربائى و (استيفنسن) آلته البخارية وما كان للحظ أن يبعث فى أرض النلاح المجد النشيط محلا وجذبا فولا فى أرض الكسلان الخامل نماء وخصبا . وما كان الحظ ليرفع من شأن الرذائل ويحط من قيمة الفضائل وحول العالم الى فوضى ويجعل من النظام خرافة .

كثيرا ما قيل لنا أن بعض المستكشفات العظيمة كانت وليدة الحظ والمصادفة ، فقد أوحى سقوط تفاحة الى (نيوتن) قانون الجاذبية . وقد ألهم (فرانكلن) وحيه البرق والكهرباء بسبب ملاحظة عرضية اصاعقة من الصواعق . ولم يفكر (جيمس واط) فى استخدام البخار الا بعد أن أرى غطاء قدر يعلو ويهبط ، ولم يصل (جاليليو) الى فكرة قياس الزمن بيندول الساعة الا حين رأى القنديل فى كنيسة (بيزا) يتأرجح ويتذبذب .

لقد قيل لنا هذا وكثر مثله لنؤمن بأن بعض الأعمال العظيمة التى زادت فى رخاء الانسان وسعادته انما كان منبتها الحظ والمصادفة وقد يكون هذا حقا ولكنا لا يسعنا إلا أن نجزم بأن الفكرة المبدئية الأولى لهذه المستنبطات العظيمة كانت حتما تختلج فى نفوس هؤلاء الأبطال وتشغل عقولهم ثم جاءت تلك الملاحظات العرضية — إن صح أنها وقعت — حافزا لهم على التفكير هاديا لهم فى أسلوب البحث. وكم رأى آلاف الملايين من الناس قبلهم غطاء يعلو ويهبط وتفاحات تنضج فتسقط وقناديل تتأرجح وتهتز وصواعق تضرب فى الفضاء فلم يحرك هذا من عقولهم ولا أثار شيئا فى أخيلتهم .

أجل — سيداتى سادتى — أن للطبيعة طرقا عجيبة فى اخفاء أسرارها عنا وكثيرا ما تكون هذه الأسرار فى متناول أيدينا لا يحجبها عنا سوى (عود من القش) ولكن يجب ألا ننسى أن انتزاع هذا (العود) هو كل شىء وأنه يحتاج الى أكثر من مجرد وحى أو الهام.

ثم هب أن بعض هذه المبتكرات العظيمة كانت وليدة الحظ والاتفاق فهل كان من الممكن أن يصل بها الانسان الى تلك النتائج الباهرة التى أثارت للعالم طريق الحياة وزادت فى سعادته واطمئنانه لو لم يقترن ذلك بعزائم ماضية وجهود مستمرة مضنية وتضحيات عظيمة .

ماذا كان يفيد العالم من مجرد فكرة يوحى بها الى (نيوتن) أو إلهام يلهمه (فرانكلن) أو ملاحظة عرضية تقع عليها عين (جيمس واط) إذا لم يبذل كل منهم عقله وقلبه فى تحقيق فكرته ؟ كيف كان العالم يصل الى قانون الجاذبية وقياس الزمن والمركبة البخارية إذا قنع هؤلاء الأبطال بملاحظاتهم العرضية وظلت الفكرة فكرة الوحى وحيا والالهام إلهاما ؟

سيداتى ، سادتى .

إذا أبيتم إلا أن تعدوا النجاح الذى صادفه بعض هؤلاء المخترعين فى أعمالهم من قبيل (الحظ) فقد أضفتم الى (الحظ) معنى أسمى وأشمل وبهذا يكون الحظ هو (التوفيق)

فى العمل ويصبح بهذا المعنى وليد التعب والعناء والمشقة وبذل الجهد والصبر . ثم يصبح (الحظ) على هذه الصورة نهاية لا بداية وتابعا لا متبوعا فالاجتهاد والمثابرة والعزم هى التى تجلب (الحظ) وإن شئتم فقولوا إن تلك الصفات الأدبية هى التى تقى المرء سوء الحظ .

أما الحظ كما يفهمه سواد الناس فالاعتماد عليه مجلبة للفاقة والبؤس والتعس إنهم يترقبون من الحظ ثروة ولكن العمل هو الذى يضع أساس الثروة . انهم يعتمدون على المصادفة ولكن العمل يعتمد على القوة والخلق والمثابرة والجلد .

سيداتى ، سادتى

إن حياتنا الجديدة فى مصر حياة جد وعمل . حياة جلاد وكفاح . حياة تأبى الحظوظ والمصادفات وتنفر منها . إن (الحظ) فى حياة القرن العشرين لا يعنى أكثر من الجد والعزم واغتنام الفرص وتوجيهها التوجيه الصالح المثمر . إن من الواجب أن نستبعد (الحظ) من حياتنا ونسقطه من حسابنا وأن نؤمن إيمانا قويا صادقا بأن الحظ والجد والسعود والنحوس كما يفهمها عامة الناس — هى ألفاظ لاوجود لها إلا فى معاجم البله الضعاف .

زكى المهندس
عميد كلية دار العلوم

فزادك خفاق وبرقك خافق وأعياك فى الدنيا خليل موافق
تخير ! فإما : وحدة مثل ميتة وإما جليس فى الحياة منافق !